الفصل الثاني

الظواهر الصوتية في قراءة الحسن البصري

قسم المؤلف هذا الفصل إلىٰ ثلاثة مطالب:

المطلب الأول

الإتباع الصوتي

مهَّد المؤلف لهذا المطلب بمدخل يتعرف القارئ من خلاله علىٰ أبعاد هذه الظاهرة عرض فيه لتلك الكلمات الأفقية التي تلحظ فيها أثر هذا الإتباع الصوتي والتي لا تختلف إلا في حرف واحد فقط: وهو عبارة عن تغيير صوتي يطرأ علىٰ كلمة لإحداث تناسب بينها وبين كلمة أخرىٰ، وهو تغيير يطرأ علىٰ صوامت الكلمة طروءة علىٰ صوائتها، ومثل للنوعين معًا، أضف إلىٰ ما ذكره المؤلِّف نص القدامىٰ في هذا الباب وهو أن الإتباع أن تتبع الكلمة الكلمة علىٰ وزنها أو رويها إشباعًا وتأكيدًا[1]. هذا في باب إتباع الصوامت والذي لا تجد له أثرًا في القراءات القرآنية، أما في باب الصوائت فتراه في تلك الكلمات التي تتبع فيه حركة بأخرىٰ مماثلة لها، وزيادة في إيضاح هذا الجانب نذكر ما ذكره الدكتور/ عبده الراجحي في تعريف هذا التماثل: تأثر الصوائت القصيرة بعضها ببعض، إذ يحدث أن يتجاور أو يتقارب صائتان قصيران في كلمة أو كلمتين، فيتأثر أحدهما بالآخر، وينقلب إلىٰ جنسه، ويؤدي ذلك إلىٰ انسجام في الأصوات[2]. هذا وقد

(1) المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي. تحقيق. محمد أحمد جاد المولىٰ وآخرين 1/ 414 – دار الجبل –بيروت – مطبعة الحلبي.

(2) اللهجات العربية في القراءات القرآنية د. عبده الراجحي ص143 – دار المعرفة الجامعية – بالإسكندرية سنة 1996م.

سار المؤلِّف في إطلاق هذا المصطلح علىٰ نهج القدماء مثل سيبويه وابن جني[1]، في حين لم يذكر أن بعض المحدثين قد سار علىٰ نهج القدامىٰ في إطلاق مصطلح الإتباع[2]، وقيل هو باب المماثلة في الحركات[3]، وقيل التوافق الحركي[4]، وقيل الانسجام بين الحركات[5].

وعن هذا الجانب وخاصة في قراءة الحسن البصري فحدث ولا حرج، وقد عرض المؤلف لهذا الجانب من خلال ثلاث نقاط:

أولا- إتباع حركة الإعراب لحركة البناء

من خلال نموذج واحد عرض المؤلِّف لتلك القراءات الثلاث الخاصة بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ [**الفاتحة**: **2**] والتي ترىٰ فيها حركتي الدال واللام قد صورت بثلاث صور إما بالكسر أو الفتح أو الضم، وهي بهذه الصور الثلاث تدخل في دائرة الإتباع الصوتي، ولكن دعنا الآن من قراءتي الفتح والضم ولنقف مع قراءة الحسن البصري بالإتباع والتماثل الخاص بالكسر والتي نسبت إلىٰ بني تميم وإلىٰ بعض بني غطفان[6]. والتي نقدها كثير من العلماء ذكر المؤلِّف منهم السيوطي في

(1) ينظر: الكتاب 4/ 109-، والخصائص لابن جني. تحقيق. محمد علىٰ النجار 2/ 338-الطبعة الثالثة - الهيئة المصرية العامة للكتاب -1408هـ-1988م. وقد أطلق عليه ابن جني أيضًا مصطلح التقريب.
ينظر: السابق 2/ 144، 143.

(2) اللهجات العربية في القراءات القرآنية د. عبده الراجحي ص143.

(3) اللهجات العربية في التراث د. أحمد علم الدين الجندي 1/ 266- الدار العربية للكتاب- 1384هـ-1965م.

(4) مدخل إلىٰ علم اللغة د. محمود فهمي حجازي ص86- دار قباء للطباعة والنشر - القاهرة.

(5) في اللهجات العربية د. إبراهيم أنيس ص68-الطبعة السادسة -مكتبة الأنجلو المصرية 1973م.

(6) القراءات الشاذة وتوجيهها من لغة العرب. عبد الفتاح القاضي ص24- دار الكتاب العرب - بيروت - لبنان- 1401هـ-1981م
وينظر هذه القراءة إضافة إلىٰ ما ذكره المؤلف في: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لابن جني. تحقيق. علي النجدي ناصف، د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي 1/ 37- الطبعة الثانية 1406ه، وإعراب القرآن للنحاس. تحقيق د. زهير غازي زاهد 1/ 170 - طبعة عالم =

المزهر، ولكن إضافة إلىٰ ذلك فقد ذكر ابن جني أنها شاذَّة في القياس والاستعمال[1]، أو أنها تتسم بالغرابة كما ذكر أبو حيان[2].

بيَّن المؤلِّف أن القراءة بالكسر تتوافق مع لهجة عربيَّة فصيحة وهي لغة تميم وردَّ علىٰ مَنْ خالفه في هذا الرأي وخاصَّة ابن جنِّي الذي يرىٰ أنَّ القراءة بالضَّم أيسر من القراءة بالكسر فناقشة مناقشة علميَّة وانتهىٰ في الرَّد إلىٰ ذكر عدَّة أدلَّة منها: أنَّ النُّطق بالضَّمِّ كيف يكون أيسر من الكسر والدَّال صوت أمامي وكذلك الكسر والضَّمة صوت خلفي، ولا شكَّ أنَّ الأمامي أيسر في النُّطق من الخلفيِّ ورؤيته رؤية صحيحة؛ لأنَّ الحركات القصيرة الثَّلاث، تندرج الفتحة والكسرة منها تحت دائرة الأصوات الأمامية بينما تندرج الضَّمة تحت دائرة تصنيف الأصوات الخلفيَّة. فعلَّة «من خفض الدَّال من (الحمد) فإنَّه قال: هذه كلمة كثرت علىٰ ألسن العرب حتىٰ صارت كالاسم الواحد، فثقل عليهم أن يجتمع في اسم واحد من كلامهم ضمَّة بعدها كسرة، أوكسرة بعدها ضمَّة، ووجدوا الكسرتين قد تجتمعان في الاسم الواحد مثل (إِبِل) فكسروا الدَّال ليكون علىٰ المثال من أسمائهم»[3]، وهو نوع من أنواع التَّأثر الرَّجعي الذي فيه يتأثَّر الصَّوت الأول بالثَّاني، وفي النِّهاية ذكر أن السُّهولة وعدم السُّهولة لا يعني أفضليَّة قراءة علىٰ غيرها، وقد أصاب في ذلك أيضًا؛ وذلك لأنَّ القراءة محكومة بضوابط وقواعد.

= الكتب - الطبعة الثانية 1405هـ-1985م، والجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي). تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي 1/ 211 - مؤسسة الرسالة للطبع والنشر - الطبعة الأولىٰ 1427هـ-2006م، والمحرر الوجيز لابن عطية. تحقيق. الرحالة الفاروق وآخرين 1/ 72 - مطبوعات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - دولة قطر - الطبعة الثانية 1428هـ-2007م، والبحر المحيط لأبي حيان. تحقيق. عادل أحمد عبد الموجود وآخرين 1/ 131- دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولىٰ 1413هـ-1993م.

(1) المحتسب 1/ 37.

(2) البحر المحيط 1/ 131.

(3) معاني القرآن للفراء1/ 3- طبعة عالم الكتب - بيروت - الطبعة الثالثة 1403هـ-1983م.

ثانيًا- صلة ميم الجمع إتباعًا

هذه مسألة من المسائل الخاصَّة بالإشباع النَّاتج عن إطالة زمن النُّطق بالحركة حتىٰ يتولَّد منها الحرف الذي من جنسها، ولكن لم يعرض المؤلِّف للتَّعريف الخاصِّ به وضابطه: «هو تقوية النُّطق بالصَّوت»[1]. أو «إتمام الحكم المطلوب من تضعيف صيغة حرف المدِّ أو اللين لمن له ذلك»[2]. وأصحاب القراءات لهم تفصيلات خاصَّة بهذه المسألة، ما يعني القارئ منها هنا هي قراءة الحسن البصري الخاصَّة بميم الجمع المسبوقة بكسر فإنَّه يصلها بياء مثل: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: 7] فإنَّه يصل الميم المكسورة بياء، وكذلك ميم الجمع المسبوقة بضمٍّ فإنَّه يصلها بواو مثل: (أَنفُسهمو)، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ [البقرة: 9].

وتوضيحًا لهذه المسألة أذكر أنَّ ابن جنِّي كان موفَّقًا غاية التَّوفيق عندما عبَّر عن هذه المعادلة بقوله: «اعلم أنَّ الحركات أبعاض حروف المد واللين ... وذلك أنَّ الحركات أبعاض لهذه الحروف، أنك متىٰ أشبعت واحدة منهنَّ حدث بعدها الحرف الذي هي بعضه، وذلك نحو فتحة عين (عَمَر) فإنك إن أشبعتها حدثت بعدها ألف، فقلت: عامَر، وكذلك كسرة عين (عِنَب) إن أشبعتها نشأت بعدها ياء ساكنة، وذلك قولك: عِيْنَب. وكذلك ضمة عين «عُمَر» لوأشبعتها لأنشأت بعدها واوًا ساكنة، وذلك قولك: «عُوْمَر» فلولا أنَّ الحركات أبعاض لهذه الحروف، وأوائل لها لما نشأت عنها، ولا كانت تابعة لها»[3].

ويؤكِّد ابن جنِّي علىٰ ذلك في باب خاصٍّ أطلق عليه «مطل الحرف» يقول فيه: «وإذا فعلت العرب ذلك أنشأت عن الحركة الحروف التي من

(1) اللغة العربية معناها ومبناها د. تمام حسان ص302 - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1979م.

(2) الإضاءة في بيان أصول القراءة. علي بن محمد الضباع ص27- طبعة عبد الحميد حنفي - القاهرة 1938م.

(3) سر صناعة الإعراب 1/ 17، 18. وينظر: الخصائص 2/ 317.

جنسها، فتنشئ بعد الفتحة الألف، وبعد الكسرة الياء، وبعد الضَّمَّة الواو»[1].

وقد فات المؤلِّف نسبة هذه الظاهرة إلىٰ قبائلها النَّاطقة بها، حيث شاعت هذه الظاهرة في لغة أهل الحجاز واليمن[2]، وبعض بني سليم، إضافة إلىٰ تميم وطيئ[3].

ولا إشكالية في نسبة هذه الظَّاهرة إلىٰ القبائل الحضريَّة؛ وذلك لأنَّها تميل بطبيعتها إلىٰ التأنِّي في الأداء، فالقبائل المتأنِّية تعطي كلَّ صوت حقَّه من الأداء فلا حاجة بها إلىٰ إشباعه ... ولكن الإشكاليَّة في نسبتها إلىٰ القبائل البدويَّة التي عرف عنها عدم التأنِّي في الأداء، ولكنَّ الأمر ليس علىٰ إطلاقه؛ لأنَّ الذي نظنُّه أنَّ العلاقة قويَّة بين الإشباع هنا وبين ما عُرف عن القبائل البدويَّة من سرعة في الأداء؛ لأنَّ هذا الإشباع هو المحطَّة التي يريح أحدهم فيها نفَسَه بعد إجهاده بسرعة الأداء، أما القبائل المتأنِّية فلا حاجة بها إلىٰ وقفة تريح النَّفَس[4].

فمطل الحركة هنا كان أحيانًا ضرورة تفرضها عليهم سرعتهم في النُّطق؛ لأنَّ هذه السرعة تحتاج إلىٰ شيء يحدُّ منها، وكان المطل في بعض الكلمات بمثابة كابح يكبح جماح هذه السُّرعة فيعطي الكلام دفعات من الرويَّة، وقد أشار ابن جنِّي إلىٰ مثل هذا حين ربط بين الإشباع في بعض مواضعه وبين طريقة الأداء فقال: «... وهذا المطل لا يكون مع الإسراع والاستحثاث، وإنَّما يكون مع الرويَّة والتَّثبت»[5].

---

(1) الخصائص 3/ 123.

(2) ينظر: الكتاب1/ 177، والمحتسب 1/ 166، 258، 259، 430، والخصائص 2/ 318.

(3) ينظر: معاني القرآن للفراء 2/ 152، والمصباح المنير للفيومي (ن. ح. ر) ص227، وتسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك. حققه. محمد كامل بركات ص25- دار الكتاب العربي بالقاهرة 1388هـ-1968م، وارتشاف الضرب من لسان العرب لأبي حيان. تحقيق د. مصطفىٰ أحمد النماس 1/ 463، 473 - الطبعة الأولىٰ 1404هـ-1984م، والبحر المحيط 2/ 628، وإتحاف فضلاء البشر 1/ 448.

(4) اللهجات في الكتاب لسيبويه (أصواتًا وبنية) د. صالحة راشد غنيم آل غنيم ص123، 129 - جامعة أم القرىٰ - مكة المكرمة - مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي - الطبعة الأولىٰ 1405هـ-1985م.

(5) المحتسب 1/ 165.

فإشباع الحركة بما فيه من رويَّة وتثبُّت كالمستراح يريح فيه البدوي نفسه من الجهد بسرعة الأداء[1].

ثالثًا- كسر نون (مِنْ) إتباعًا

ظاهرة أخرىٰ من ظواهر الإتِّباع الصَّوتي الخاصَّ بالتَّماثل بين الحركات يعرضها المؤلِّف في باب كسر نون (مِن) إتباعًا إذا وليها ساكن في قراءة الحسن البصري، وذلك من خلال مثالين في الآية الأولىٰ والثَّالثة والرَّابعة من سورة التَّوبة وهما: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ و ﴿بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ فالكسرة هذه أصلها همزة وصل الكلمة التي بعدها، أي أنَّ هذه الكسرة محوَّلة عن فتحة، والفتحة هذه هي همزة الوصل، وعلىٰ ذلك فهمزة الوصل حركة خالصة من وجهة نظر علم الأصوات ... وحتىٰ تتبيَّن لنا حقيقة كسرة نون (مِنْ) بصورة أوضح، لابدَّ من النَّظر في التوزيع المقطعي لـ (من) و (ال) التعريف التي بعدها في حالي الفصل والوصل، هكذا: في حال الفصل: م - ن/ - ل. في حال الوصل: م - /ن - ل فالتغيير الذي طرأ حال الوصل يهدف إلىٰ تخفيف الجهد العضلي، واختصار الزَّمن. هذا قبل كسر النُّون، فلما كسرت النُّون في قراءة الحسن: أصبح مركز المقطع الأول كسرة، ومركز المقطع الثَّاني كسرة كذلك: م - ن - ل، فتحصل من ذلك نسق إيقاعي، هو في حقيقته سرُّ الباعث علىٰ الأَخذ به، عند من استعمله وأخذ به من العرب.

وقد استخرج فصاحة هذه اللغة من خلال ثنايا بعض النُّصوص الواردة علىٰ لسان سيبويه[2]، وهمزة الوصل قد تصبح همزة قطع لا خلاف بينهما في بداية الكلام يمكن أن تحقَّق فتصبح همزة قطع ويمكن أن تبقىٰ علىٰ حالها حركة لا صامتًا، والدَّليل علىٰ ذلك بعض العيِّنات من الأسماء والأفعال، فالأسماء منها

(1) الحركات العربية في ضوء علم اللغة الحديث د. الموافي الرفاعي البيلي ص201 - الطبعة الأولىٰ 1412هـ-1991م.

(2) ينظر: الكتاب1/ 154، 155.

كلمة (ابن)، والأفعال منها كلمة (اسمع)، وذلك في حالة تحليلهما علىٰ أحدث الأجهزة الصَّوتيَّة في حالة التَّحقيق والوصل.

وهمزة الوصل في بداية الكلمة وعند نطقها محقَّقة أي همزة قطع تثبت الرُّسوم الطَّيفيَّة وصيغة الموجة الصَّوتية ذلك، وفات المؤلِّف التَّعريف بهذه المصطلحات، فرسام الطَّيف الصَّوتي Sound spectrograph هذا الجهاز يستطيع تحليل الجمل أو العبارات المنطوقة، وبيان الذَّبذبات الموجودة في كل جزء من أجزائها[1]، فهذا الجهاز يعطي تسجيلات بصريَّة ثابتة لتتابع أصوات الحدث الكلامي، في شكل خطوط متعرِّجة مختلفة التَّركيز تبعًا لقوة الذَّبذات الصَّوتيَّة الموجَّهة، ويسجل كل ذلك علىٰ ورقة بيانيَّة، ويحتاج اسم هذا الجهاز إلىٰ خبرة وتدريب حتىٰ يستطيع الباحث تحديد نوع الصَّوت، وقوَّته، والنَّغمة التي نطق بها[2]. والموجة الصَّوتيَّة: هي مجموعة من الذَّبذبات الصَّوتيَّة المتعاقبة التي تنتج إحداهما من الأخرىٰ[3].

فالرَّسم الطَّيفي في همزة (ابن) في حالتي التَّحقيق والوصل يؤكِّد أنَّ همزة الوصل لا تكون همزة قطع في البداية بالضَّرورة إلا إذا حُقِّقَت بإغلاق الوترين الصَّوتيين إغلاقًا تامًّا، وإذا لم يحدث هذا فهمزة الوصل حركة لا صامت، فهمزة القطع في الحالة الأولىٰ يقع النَّبر عليها، والنَّبر في الحالة الأخرىٰ علىٰ المقطع الذي يليها؛ لأنَّها في هذه الحالة حركة لا صامت، والموجة الصَّوتيَّة عندما تكون همزة قطع تكون موجة بسيطة منتظمة، في حالة التَّحقيق، وفي حالة الوصل فهي

(1) المختصر في أصوات اللغة العربية ص19، 18.
والذَّبذبة: تطلق علىٰ الدَّورة التي يقوم بها الجسم ابتداء من نقطة سكونه إلىٰ اتجاه ما فرجوعه مارًّا بنقطة السُّكون إلىٰ الاتجاه المقابل ثم عودته مرة أخرىٰ إلىٰ نقطة السُّكون. دراسات صوتية د. تغريد السيد عنبر ص29 – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم – القاهرة –1401هـ–1980م.
وينظر: علم الصوتيات د. عبد الله ربيع، د. عبد العزيز علام ص116 – المكتبة التوفيقية.

(2) دراسة الصوت اللغوي د. أحمد مختار عمر ص56 – عالم الكتب – 118هـ–1997م.

(3) السابق ص27، 29.

موجة بسيطة في بدايتها ولكنَّها مركبة غير منتظمة بعد انقضاء الثُّلث الأول من هذه الموجة، وأما همزة (اسمع) فهي كذلك في الرَّسم الطَّيفي، والموجه الصَّوتيَّة فيها موجة بسيطة منتظمة في حالة التَّحقيق وموجة مركبة غير منتظمة في حالة الوصل، وذلك علىٰ خلاف صيغة الموجة الخاصَّة بهمزة هذا الفعل إذا حقِّقت. وتوضيحًا لهذه المصطلحات نقول: «إذا إهتز جسم ما فإنَّه يترتَّب علىٰ حركته بادئًا من نقطة سكونه أن يضغط علىٰ ذرَّة الهواء المجاور له ليزيحها ويأخذ مكانها فتضغط هذه الذَّرة علىٰ الثَّانية المجاورة لها، التي تضغط علىٰ الثَّالثة، فالرَّابعة فالخامسة، وهكذا تتكون سلسلة من التَّضاغطات المتتالية لذرَّات الهواء، في نفس الوقت تتحرك الذَّرة الأولىٰ إلىٰ الاتِّجاه المعاكس كردِّ فعل لضغطها في الاتِّجاه الأول، وتتلوها الذَّرة الثَّانية فالثَّالثة فالرَّابعة. وبذلك تتكوَّن في آن واحد سلسلة من التَّضاغطات بينها سلسلة من التَّخلخلات، وتسمىٰ هذه الحركة لذرَّات الهواء بالموجة البسيطة، فإذا صحبها صوت سمِّيت بالموجة الصَّوتيَّة البسيطة. وتبلغ سرعة الصَّوت في الهواء حوالي 340م/الثانية أي ما يعادل 200 كيلو متر في السَّاعة. وأما الموجة المركبة: هي الموجة التي تنشأ نتيجة اهتزازة مركَّبة. ويمكن تحليلها إلىٰ مجموعة من الموجات البسيطة المتراكبة علىٰ بعضها البعض. وتقسَّم الموجات المركَّبة إلىٰ موجات منتظمة وموجات غير منتظمة. الموجة المنتظمة: هي الموجة التي تتكرَّر علىٰ فترات زمنية متساوية. والموجة غير المنتظمة: موجة ذات مكونات متقاربة من حيث التردُّدات، وليس لها شكل منتظم مكرَّر[1].

(1) دراسات صوتية ص30. وينظر: علم الصوتيات ص117، 121، 122.